

من (الكتاب الزهبي) قبل أنه يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكي عربي

— ٤ —

لفظ المرافعة لفظ التماس

ويجب ألا ينزف عن الذهن أن الترافع ملتصق ، فلفظه يجب أن تكون لفة التماس يحوطها الاحترام الكلي للهيئة التي يترافع أمامها . قد يكون أغزر من سامعيه علماً وأظهر فضلاً ، وقد يكون كلامه لهم نعليماً ، ولكن عبارته يجب أن تكون عبارة لكبار وإعظام

والاحترام والاكبار لا يقتضى التذلل ولا الضعة في توجيه الخطاب . وشد ما أكره عبارة « سيدى اليه » بوجهها بعض الزملاء إلى قاض ليس « بيكا » ولا هو بحاجة إلى رتبة تخضع عليه على سبيل التأدب الزائد وقد يحمل خامها على أنه زلفى وتقرب

وفي الوقت عينه لفظ امرأة

على أنه إن كانت لفة المرافعة لغة تعظيم وتوقير فهي في الوقت عينه لغة عزة وجرأة . وقد روى التاريخ مواقف للمحاميين رقوا فيها إلى درجة البطولة . انظر إلى ديسيز وقد دعاه لويس السادس عشر إلى الدفاع عنه أمام الجمعية التأسيسية في وقت جمعت فيه هذه الهيئة في يدها جميع السلطات ، وأصبح مجرد الإشارة إلى اللوكية جريمة . انظر إليه وهو يواجه هيئة ضمها أمثال روبسبير ودانتون ومارات . انظر إليه وهو يقرع أسماعهم وقلوبهم بهذا الخطاب الخالد

« أيها المواطنين ! سأخاطبكم بلسان الرجل الحر . إنى أبحث بينكم عن قضاة فلا أجد غير متهمين

أريدون أن تجعلوا من أنفسكم قضاة « لويس » وأنتم خصومه ؟ أريدون أن تجلسوا للحكم في قضية لويس ولكم فيها رأى يجوب أوروبا من أقصاها إلى أقصاها ؟

أىكون لويس الفرنسي الوحيد الذى لا يعميه قانون ولا يتبع في محاكمته إجراء واحد صحيح ؟

يشاءون لهم من رفعة وخير وصلاح

وقد يستدرك القارئ هنا ويسأل : أىكون الميل إلى توكيد الذات وشهوة البروز في مجال القيادة والزعامة عامل خير ووسيلة صلاح في ميادين العمل الاجتماعى ، ونحن نشهد من آثارها هذا الميل السرف والتكالب الزرى على أسباب البروز والرفعة في ميادين الزعامة المختلفة ، وإن يكن ذلك — في كثير الأحيان — على حساب الأمان العامة واهدار المصالح الكبرى للشعب ؟

ونجيب أن الميل إلى توكيد الذات عن طريق السيادة الاجتماعية ككل ميل آخر من ميول النفس يضحي أداة فاسدة ووسيلة هادمة إذا خبثت النفوس وأسفت الغاية ، وعلى أن في يد الشعب — في معظم أموره — القدرة على كبح هذا الميل وحصره ضمن حدود الصالح العام ، بما يداول من ثقته بين الزعماء والقادة وبما يشهر بالقيادة النغمية المتاجرة وبما يولها من الوقت والمحاسبة الشديدة ، مما يقمع في القيادة عواطف الأثرة وحب الانتهاز والاستغلال حيث هم أن تبرز وتستعلن .

ولا مراد في أن الانتهاز والاستغلال عن طريق القيادة الاجتماعية يقلان في شرفنا إجمالاً قلة مطردة بما تحده التربية من رفع مستوى التعليم والتنبه الفكرى وتمييق غور العواطف الاجتماعية وأخيراً أثر هذا الميل في ميدان الحب ، فنرى أن دافع توكيد

الذات هذا يعمل عمله القوى في طلب التنوع في الحب وعدم الاكتفاء بحبيب واحد يقصر عليه المم وينيط به القلب إلى آخر العمر . وذلك أن من الناس من يبلغ حس الاستملاء وشهوة القلب ورغبة البروز عندهم مبلغاً يطفى عندهم على عاطفة الحب الصحيح فيندو لا يهمهم من يحبون بقدر ما يهمهم كم من الخلق وقع في حبائل حبه ، فكأنهم بهذا يقيسون قدرتهم على القلب والفوز في ميادين الحب بمدد اللواتى يهتهن ذكرهم واستحوذت على قلوبهن صورهم

وتقف عند هذا الحد من التفصيل والتمثيل لهذا الميل في أحواله الطبيعية والشاذة موقنين أن الاستقصاء التام والجللاء الكامل لجميع آثاره إنما هو استقصاء لأعظم حالات النفس أراً مطبوعاً في الخلق والسلوك وأشدّها دافعاً وحافزاً على العمل ، وليس هذا المجال مجال ذلك

أريب عباس

أيجرد من امتيازاته تلك ومن حقوقه كموطن ؟
أيجزله القانون حاكماً ومحكوماً ؟
يا له من مصير عجيب لا يتصور !

لقد ضربت أعتاق كثيرة في عهد الثورة لكلام أقل خطورة
من هذا بما لا يقاس . ولكن لأعمال الجرأة روعة تهاب وتعتزم ،
فان التاريخ الذي حفظ هذه المرافعة الخالدة بين صحفه الذهبية .
هذا التاريخ عينه يحدثنا بأن شمرة من رأس ديسيز لم تمس بسبب
هذا الكلام الجريء . وأنه ترفع بعد ذلك أكثر من مرة في أشد
أوقات الثورة حلوكه وسوادا

الاعتزال في لغة المرافعات

وليس أزدري بالرافعات ولا أضيع لهجتها ولا أقل لسلحتها
من سفه لفتها . إن عبارة قاذمة واحدة يرى بها خصم كريم - أو
غير كريم - لتكفي في تنفير القاضي

وليس بعد النفرة تقويت للفرض الأصيل المقصود بالرافعات
وأقبح من رى الخضم بما لا يجب جرح الزميل
صحيح أن المرافعة دفع وجذب ، وتآدر هو الترفع الذي
يملك زمام أعصابه فلا يجمع به حدة الدفاع ؛ ولكن المسألة
مسألة مران ، وإنك لتدهش وقد صودت نفسك التزام حدود
الاعتدال كيف يسمو موقفك ، وتماو حجتك ويمتاز بيانك

الرافعات في مصر

بقيت كلمة كان يمكن أن تكون موضوع مقال خاص ،
فلسنا نملك الإطالة فيها هنا ، وهي عن المرافعات في مصر
لقد اتقضى على انشاء المحاكم المختلطة فيف وستون عاماً ،
وأقل منها قليلاً على قيام المحاكم الأهلية ، وقد قلبت على الأولى
اللغة الفرنسية ، وكانت العربية لغة الثانية منذ الانشاء وقبله
وقد زهت اللغة في كلا القضاءين إلى حد يشهد لمصر
بالتفوق البعيد

حضرت الأستاذين كاتسغليس وبادوا (وكلاهما شرق
من مصر) يترافعان في قضية قناة السويس . وكان إلى جانبي
الأستاذ جرانمولان الناظر الأسبق لمدرسة الحقوق ، فهمس في
أذني والأول مندفع في بيانه الساحر : « لا تطمع أن تسمع خيراً
من هذه الفرنسية من خبير الترافعين أمام محكمة السين »
وفي المحاكم الأهلية سابت لغة المرافعات الزمن فسبقته

لقد وجد مداره مقاويل - على حد تعبير رئيس محكمة
النفق - قبل أن تخطو اللغة العربية خطواتها الأخيرة الواسعة
وجد (حسين صقر) ، و (اللقاني) ، و (نقولا توما) وغيرهم
من بناء المجد في زمن كانت المحاماة فيه مجرد اجتهاد
وثمة نموذج من هذا المجد الغابر تجده إلى اليوم قائماً بيننا في
شخص شيخ الجماعة وإمام الصناعة الأستاذ الأكبر ابراهيم
الهلباري بك
من ذا يستطيع إلى اليوم تحدى بديهته الوثابة ولقته الفكاهة
اللاذعة وسخره القتال ؟

ومن ذا الذي يستطيع أن ينسى سمد زغلول وأباشادي من
جيازة ذلك العصر وكلاهما كان إلى الأمس القريب صداحا
بأروع الأدب

وجاءت بعد هؤلاء طبقة هي نخر المحاماة بمنهاها الصحيح
ونخر لغة العصر : أحمد لطفي بلفته السهلة المتمعة وعبد العزيز
فهمي بقلبه ولسانه الجبارين يتصرفان في المعنى وفي المبنى بما يريد
ويشتهى . ووهيب دوس صاحب التطق الجزل والديباجة الرشيقه
والبيان المتدفق في غير متمعة ولا تزيد . ومرقس ، ومرقس الذي
لا يلحق ولا يتأني ، ومرقس الجناب الأخاذ ، المتغفل باسمه إلى
الأعماق ، السامى به إلى السبع الطباق

كل من هؤلاء يستحق أن يدرس دراسة خاصة ، وأن يقدمه
إلى الناس قلم غير هذا القلم ، وأن تقف عليه جهود لا تستطيعها
هذه المجالة

وفي دراسة هؤلاء الفحول دراسة لتأحية مجيدة من أدينا
القوى يجب ألا تهمل . وحسبك منا هنا الاشارة إلى آثارهم
في مختلف ألوان فني الكلام القضائي مما لا يحصى محص

مرافعات النيابة

ومن الاجرام أن تغفل في صدد الكلام على المرافعات في
مصر جهود القائمين بالدعوى العامة
لقد ضربوا في فني الكلام القضائي بسهم . ووقفوا بالرافعات
الجنائية إلى عليين

من تذكر على سبيل المثال ؟
أثروت أم أبو السمود من المغيبيين في جوار الله ؟ الابراشي
أم لبيب عطيه أم عمر طارف من الأحياء النابيين ؟

إني لترمد فرائصي إذا تصورت منظر البلاد وقد نشأ فيها
البلاء الأكبر بفشو تلك المبادئ القاضية»

واسمع ما يقوله النائب العام السابق خاتماً به مرافقته الرائمة
في قضية الفلال

« لقد أبنت مبلغ ندالة الجريمة ومدى شرها إذا هي وقعت
على كابر جليل المقام

أبنت ذلك بقدر ما فسح لي موقف النائب العمومي وأجازته
الأمانة التي في عنق

ولو أن المجال حر لقائل لسمعتكم كل ما يتطلبه حزمكم وترضاء
عدالتكم ، ولكنني كما أسلفت مؤمن بفطنتكم ولى فيها كل الفناء
على أن هناك أمراً أجمل شأنًا وأعظم خطراً لا أستطيع حمل
ضميري على كتمانها ، ولا عقد لساني عن بيانها . هذا الأمر الخطير
هو ما أشرت إليه في صدر مرافقتي وأحثت به عند حديثي عن
الباعث الذي دفع التهم إلى جنائته ، ذلك هو ولع التبطل وغواية
الاستعظام ، وما أجلت في جلسة الاحالة بأنه داء اجتماعي وييل
يهدد الحكومات في كيانها ويشل النظام من أساسه ، وأنه إن
لم يؤخذ بيد عسراء استفحل ضرره وعز انقائه شره . نعم
استفحل ضرره وعز انقائه شره

ارحموا لأنفسكم بواسع خبيرتكم ونافذ بصيرتكم حال البلاد
وقد أصبح كل عظيم فيها هدفاً لرأى شق تربت في نفسه
الشريرة هذه الأفكار الخطرة ! تلك حال أستميد بالله منها
هي مضيعة للعلمانية ومقتلة للتبوغ ومفسدة للنس الامامين ؛
بل هي حفرة يتردى فيها إخلاص المحاصرين ونشاط المجدين
وإيمان الصالحين

أنتم قضاة الحق ولكنكم أيضاً مبربو الخلق . وكلمة العدل
التي بها تنطقون يتجاوب صداها في نفوس ناشئة ونفوس نائرة
ونفوس فزعة خائرة . فاجملوا حكمكم رسالة عدل وبلاغ عبرة
وبشرى سلام

وإذا جنحتكم إلى الرحمة فاشملوا بها النشء وقد أوشك أن
يلتوي ، والبلاد وقد دب فيها ذلك الداء الوخيم
أنتم أطباء النفس كما أنتم قضاة العدل ، والطبيب البصير
لا يتردد ولا يني عند الضرورة الحاركة ، والقاضي المحازم يهذب
بالزجر الحكيم وهو في زجره من الراحين
وازوا بين روعة الرحمة ، وقد حلت بالبلاد وبالنشء وبين

كلهم يصح أن يحتذى

اسمع ما يقول النائب العام الأسبق في قضية الورداني
« إن الوطنية التي يدعى الدفاع عنها بهذا السلاح المسموم
لبراء من مثل هذا المنكر

إن الوطنية الصحيحة لا تحل في قلب ملأته مبادئ تستحل
اغتيال النفس . إن مثل هذه المبادئ مقوضة لكل اجتماع
وماذا يكون حال أمة إذا كانت حياة أولى الأمر فيها رهينة
حكم منهوس يبيت ليله فيضطرب نومه وتكثر هواجسه فيصبح
صباحه ويحمل سلاحه يشام في دار أعمالهم فيسقيهم كأس المنون ؟
ثم إذا سئل في ذلك تبجح وقال إنما أخدم وطني لأنني أعتقد
أن مثلهم خائنون للبلاد ضارون بها : تبأ لتلك المبادئ وسحقاً
لها ! كيف يقوم لنظام قائمة مع تلك المبادئ الفاسدة ؟ إن مبادئ
كل اجتماع ألا ينال إنسان جزاء على عمل مهما كان هذا الجزاء
صغيراً إلا عن يد قضاة اشترطت فيهم ضمانات قوية وبمد أن
يتمكن من الدفاع عن نفسه حتى ينتج الجزاء النتيجة الصالحة
التي وضع لها من حماية الاجتماع

فإذا كان هذا هو الشأن في أقل جزاء يلحق بالنفس أو بالمال
فإياك يجزاء هو ازهاق الروح والحرمان من الحياة ؟

تلك مبادئ لا وجود لمجتمع إلا بها ولا سعادة له بدونها ،
فالعلمانية على المال والنفس هي أساس العمران ومن الدائم التي
أدم عليها في كل زمان ومكان ، ولكن الورداني له مذهب آخر
في الاجتماع ، فهو يضع نفسه موضع الحكم على أعمال الرجال فما
ارتضاء منها كان هو النافع ، وما لم يرتضه كان هو الضار . ويريد
أيضاً أن يكون القاضي الذي يقدر الجزاء ثم يقضى به من غير
معقب ولا راد

كل ذلك والأمر لم يتعد ارجاء صدره ولا يعلم ذلك المسكين
الذي سينصب عليه هذا القضاء أنه على قيد شبر من الموت جزاء
له على جنابة لم يسأل عنها ولم يعلم من أمرها شيئاً

إن مثل هذا الحق لا يمكن أن يكون إلا لله سبحانه وتعالى
المطلع على السرائر العليم بالنيات ، ومع ذلك فإنه جل شأنه شرع
الحساب قبل المقاب ؛ ثم إن هذا الحق لم يتطلع إليه أحد من
العالمين حتى الأنبياء أنفسهم ، وقد أجمت الشرائع على عصمتهم
من إزلال والخطأ ، ولكن الورداني يريد أن يضع نفسه فوق كل
الدرجات المتصورة لما لم وحكم وقتل